

أمي وأبي وأنا

ناصر الرباط

ليس صحيحاً أن الأطفال الصغار الذين لا يتكلمون بعد لا يتذكرون. بل وليس صحيحاً أنهم لا يمتلكون خيالاً خصباً يستعملونه في جبك القمص. ولكن قصصهم، بحكم قلة تجربتهم وضيق اطلاعهم على العالم الواسع حولهم، تزخر بالفجوات التي لا يمكنهم ملؤها بتفاصيل من الحياة مروا بها أو شاهدوها أو سمعوا عنها أو قرأوا عنها. عليهم، بكل بساطة، أن يتخيّلوها. ولذلك فمخيّلة الأطفال، حتى بعد أن يبدأوا بالكلام ولسنين قليلة تالية، فضفاضة، وذكرياتهم زاخرة بدندشات غريبة وتركيبات عجيبة لا يملك الكبار أمامها إلا التساؤل: من أين أتوا بها؟

أنا أقول: من خيالهم الواسع الذي كان أرحب قبل أن يبدأوا الكلام ويحشوا أذهانهم بلغط الكبار وقواعد حياتهم وتفاصيل علاقاتهم ومثاقيلهم ورغباتهم وخيالاتهم. وتزحم هذه المشاغل، التي تتراكم مع العمر، عقل المرء، فلا تترك فيه كبير مكان لذكريات ما قبل الكلام التي كانت شاغله الأوحّد في بداية حياته. فتغادر هذه الذكريات مكانها مكسورة، وتختفي تاركَةً ظلاً باهتاً من وجودها السابق، هو ما يُعرفه أغلبية الناس بـ «الخيال الطفولي» - وهو في الحقيقة بقايا مبتورة من ذكريات حقيقية مطعمة ببعض الخيال. ولا يُستثنى من ذلك إلا ما ندر من الأفراد المتميزين الذين لا يحافظون فقط على ملكة خيالهم ريانة نضرة، بل ويحافظون أيضاً على ذكرياتهم الأولى قبل أن تدفّعها مشاغل الحياة اليومية البالغة إلى غياهب النسيان.

أنا واحد من أولئك الذين يتذكرون أحداث ما قبل الكلام وقبل التعبير: مغامرات الطفولة الخالصة التي لا تحتاج إلى روابط أو تبريرات منطوية لكي تستقيم في الفكر وتقدم للطفل إطاراً لفهم عالمه الجديد. ولا أظن أن من السهل رواية هذه القصص التي لم تنسق وفق سياق متسلسل بدايةً، بل هي انطباعات وصور وتفسيرات غير منطوقة تمنح العقل الطري مرتكزاً للتعامل مع ما يجري حوله، خصوصاً ما يحصل بعيداً عن نظره ولكنه يرى نتيجته في مأكله وملبسه وأهله ومحيطه وتغيّر الضوء حوله وما إلى ذلك من التفاصيل الغامضة.

وهنا أود أن أقص عليكم كيف حاول عقلي الصغير فهم العلاقة بين الشخصين اللذين أحاطاني بالرعاية والاهتمام منذ البداية، واللذين أتضح لي فيما بعد أنهما أمي وأبي، حتى قبل أن أفرق بيني وبين الآخرين في مستهل إطلالتي على الدنيا.

لعل أول ما أذكره هو ملمس يد أبي وهو يحملني ويقدمني إلى أمي. يليه، بقليل، أثر ثدي أمي على فمي وطزاجة الحليب المنبعث منه على لساني. لكن تلك كانت ذكريات دخلت مخيلتي عن طريق اللمس والطعم من دون أن يكون لها صورة أو صوت؛ فأنا في الأيام الأولى من عمري كنت مشغولاً بالنوم والأكل والتعود على الضوء ومحاولة الرؤية التي لم تتجاوز التركيز على خيالات باهتة متحركة حولي ولسافة قصيرة. وكنت أجهد لضبط عدستي عيني لكي تحدد ما أراه أمامي، وهو ما حدث تدريجياً. حتى صحت ذات يوم لأرى وجهاً يحدّق فيّ مبتسماً، وذراعين تميلان ناحيتي وتلقفاني لتحملاني إلى ما كنت قد أصبحت معتاداً عليه، ملمساً ودفناً وطعماً: ثدي أمي، منبع حياتي. وسمعت صوت أمي يناغيني، وقررت فوراً أن هذا الصوت هو منبع الأمان من الآن فصاعداً. ووجدتني أطيل النظر إلى وجه أمي الذي بدا لي وكأنني كنت أعرفه من قبل. أين؟ وكيف؟ لا أدري. والحقيقة أنني لم أشغل نفسي كثيراً بحل هذه المعضلة، أو بالبحث عن أجوبة لأي من المعضلات التي بدأت تواجهني مباشرة بعدها، كأن أفهم الأصوات التي كانت أمي تُصدرها باتجاهي. فقد كان حسبي إدراكي أنها أصوات محببة ومحببة، وكفى.



لكن الأمر ازداد تعقيداً عندما دخل الشخص، الذي سيتبين لي لاحقاً أنه أبي، إلى حيز نظري، وتبينت صاحب الصوت الأجنس الذي كنت أسمعه في الأيام السابقة، خاصةً عندما كنتُ أُحمل على وسادةٍ من الشعر الذي يزغزغني عندما يلامس جلدي، أو أُؤخذ من مرقدي الدافئ والمظلم الذي يثير في شعوراً بالارتياح لكي أقبع على بطن أمي. وهناك أتناولُ حلمتها بين شفتي وأمصّها، فينثال في فمي حليبها الدافئ واللذيذ، وأمضي في عضتي ولعقي ومصّي بنهم إلى أن ارتوي، وأحمل بعد ذلك ثانيةً ورأسي إلى فوق لكي أتجشأً. وتتسكب قطرات من الحليب من فمي أحياناً، خاصةً عندما يكون نهمي قد تجاوز طاقتي على الهضم. وبعد القليل من الدحات الخفيفة على ظهري، عندما تُدرك أمي أنني قد بلعتُ ما مصصتُ، تعيدني يداها الرقيقتان إلى يدي أبي الأكثر خشونةً، فتحملاني إلى مرقدي لكي أعاود إغفائي، إلى أن يحين موعدُ الرضعة التالية، أو إلى أن أفيق على صوتٍ ما واندفع في البكاء غيظاً على ما سبّب استيقاظي، فتهددني اليدان الحائيتان للنوم ثانيةً.

كانت حدودُ عالمي في الشهور الأولى من عمري هي حيز البيت الذي كنا نسكنه، أمي وأبي وأنا، وهو حيزٌ لم أعادره إلا فيما ندر، ولسويغاتٍ قليلةٍ أخذتُ فيها إلى الطيبة أو إلى السوق أو الحديقة العامة أو في زيارة مع أمي لأناس لا يعنونني في شيء، وإن كانوا يُظهرون لي كل أنواع التحبب. وقد لزمني بعضُ الوقت لكي أفهم حقيقة العلاقة بيني وبين أمي وأبي، ولكي أدرك أنها لم تبدئي مع مجيئي إلى الدنيا، وأنهما، على ما يبدو، كانا هناك منذ زمن بعيد، وأنهما يتشاركان في الكثير من الأمور التي لا أعلم عنها شيئاً. وقد أثار هذا الإدراك حفيظتي: فكيف يُمكن هذين الشخصين - اللذين ظهر لي أنّ هُمّما الأول في هذه الدنيا هو إرضائي - أن يعرفا أشياء لا أعرفها، أو أن يتواصلوا من دون علمي أو حتى وجودي؟

استغرقتني هذا الهاجس، فلم أجد منه فكاكاً إلا في أن أصبح أكثر تطلباً ونزفةً، ولاسيما عندما يحملني أبي ويكلّمني ويأخذني بعيداً عن أمي ويرفعني عاليًا وهو يقهقه، ويسمّيني أسماء لا أعرفها ولا أفهم مغزاها، وأنا الذي كنتُ قد ابتدأتُ بتعوُّد ما فهمتُ أنه اسمي، خصوصاً عندما يتفرق على لسان أمي ويجيئني مليئاً بالحنان والرفقة والعذوبة.

بدأتُ أفرق في التعامل مع أبوي بالتركيز في استجابتي على أمي، وإهمال محاولات أبي التحبب إليّ. وأخذتُ في التشبُّث بأبي عندما أنتهي من الرضاعة والبكاء حالما تدفني يداها إلى يدي أبي وتكلّمه كلاماً لا أفهمه، قبل أن تعاود الالتفات إليّ والحديث معي بمناعاتها المحبّبة. بل صرتُ أنفر من مداعبات أبي وأهرب من يديه عندما تهمان بحملي من سريري، حتى عندما كنتُ أعرف أنه سيأخذني إلى أمي وإلى يديها. وصرتُ بوعي وتصميم أهدش بوجه أمي، وأصدر أصواتاً أردتها لطيفةً وتحببياً كلما حملتني. وبعد قليل انتبهتُ كيف تنفرج شفقتا أمي عن أسنانها وتتألق عيناها عندما تتطلع في وجهي وتمسّد رأسي، وفهمتُ أنّ هذا النوع من التعبير هو الابتسام وأنه مستطرفٌ، وابتدأتُ بتقليدها خاصةً عندما تبادلني الابتسام. وقد كان رد فعلها مشجّعاً جداً عندما ابتسمتُ لها للمرة الأولى: فقد صاحتُ وضحكتُ بل وقهقهتُ وحركتُ يديها إلى فوق وتحت بسرعة ثم ابتدأتُ بطرقهما بعضهما بعضاً مُصدرةً أصواتاً حادةً ومفرقةً. وندهتُ لأبي الذي كان بعيداً في تلك اللحظة - وكنتُ بالطبع مُدركاً لذلك - لكي يأتي ويشاهد بنفسه أول ابتسامه لابنه. ولكنني انتظرتُ حتى سمعتُ صوت قدميه لكي أكفّ عن الابتسام. ولم تغلح محاولات الاثنين معاً المتكررة في حثي على الابتسام ثانيةً، حتى عندما ابتدأا هما الاثنان بتحريك وجهيهما بطرق غريبة ومختلفة وبالابتسام المتكرر والمبالغ فيه في وجهي، بل حتى عندما أخذتُ يدا أبي بكررتي تحت إبطي وعلى بطني وفي بطن قدمي. فقد رفضتُ رفضاً باتاً مشاركة أبي في تبسُّمي وأصررتُ في ذهني على الأقل، على أنّ هذه الوسيلة من التواصل المتودّد محصورة قطعاً بيني وبين أمي. وحافظتُ على وعدي لنفسي لفترة طويلة، الأمر الذي أدّى إلى ملل أبي من محاولة استمالتني أو إضحاعي بل وإلى شكّه في أنني قادرٌ على الابتسام أصلاً، وهو ما لاحظتُ أنّ أمي تصرّ على تأكيده. وكان ذلك يدفعهما إلى مناقشة يتبين لي فيها أنّ صوتيهما ارتفعا أكثر مما ينبغي.

كانت تلك هي أولى انتصاراتي.

وإزادات انتصاراتي عندما لاحظتُ أن أبي يتعمد قضاء وقتٍ أقلَّ معي، وهذا ما عنى أنني صرتُ أقضي وقتاً أطول وحدي مع محبوبتي أمي، وأنه صار يقضي وقتاً أطول وحيداً أو بعيداً لا أعلم أين ولا يهتمني أن أعلم. وصارت أمي هي من يحملني، وهي من يعيدني إلى سريرتي ويُرضعني وينظفني، في غالب الأحوال وحدها. وكانت تناغشني باستمرار، وترقق صوتها مقلدةً أصواتاً رنينها جميلٌ ووقعها لطيفٌ على أذني. وكنتُ أسمع صوتها يرتفع غاضباً على أبي عندما تتكلم وإياه وهو بعيد عن مجال نظري، فيما خيل لي أنه تقرع على تصرفاته. وصرتُ أرى أبي يجرجر قدميه لكي يأتي ويتفرج عليها وهي تلبسني أو تغير لي حفاظي أو تحممني أو تُرضعني. ولكنه أقلُّ من لمسي أو حملتي، وصار يكتفي في غالب الأحوال بالتفرج ويعود للاختفاء سريعاً تقريباً وألفاً. وصرتُ أبادلها الابتسام دوماً عندما نكون وحدنا، وأحاول أن أرقق نظرتي إليها كلما تطلعت في وجهي. بل صرتُ أحاول ألا أعرض على حلمتها بشدة عندما أرضع، على الرغم مما في ذلك من لذة، عندما أدركتُ أن هذا أحدُ منغصات علاقتنا. وصرتُ أشبك يدي حول عنقها، رافضاً تركها عندما تحاول تمديدي على سريرتي وتركي هناك بعد انتهاء النهار والعودة إلى أبي كما خمنتُ. وكانت أمي، التي لاحظتُ أنها مجهدةٌ حقاً، تحاول مسائرتي أحياناً، كأن تعيد حملي وهددتي إلى النوم أو كأن تأخذني في حضنها. ولكنها في النهاية كانت تعيدني إلى سريرتي وتظلم الغرفة، فيما عدا بصيص ضوء خافت من زاوية عالية، وتُخرج إلى عالم الليل المجهول تماماً بالنسبة إليّ...

سوى أن طرفه الآخر ظلَّ أبي.



صرتُ أكره الليل، لا لأنه يُبعدني عن أمي فحسب بل لأنه يقربها أيضاً من أبي، ولأنهما كان يقضيانه معاً عندما أكون نائمًا رغمًا عني، يتسامران ويتحدثان في أمور بعضها يعنيني بلا شك. وكنتُ أتخيلهما قريبين الواحد إلى الآخر، بل وأحياناً حاضنين واحدهما للآخر، فأمتمعض. ولكني لا أحسن التعبير عن امتعاضي إلا بالبكاء والاكفهرار في وجه أبي في المرات القليلة التي كنا نجد نفسينا وحدنا. وصرتُ أماهي بين الليل وأبي؛ فهو بعيد وبارد ومجهول وربما مثير. أما أمي فأصبحتُ كالنهار الساطع الشمس: دافئة، حانية، مضيئة، مبتسمة. وكنتُ أستعجل طلوع النهار لكي ينتهي الليل المقيت، مع أنني أنام خلال معظمه، ولكن أيضاً لكي تنخل أمي إلى غرفتي كدخول النور وتمد لي يديها وتحملني إلى صدرها وإلى عيشنا اليومي المشترك التي أردته خالصاً لنا وحدنا.

ازدادت مشاركة أبي في حياتي مع تقدمي في العمر، خاصةً عندما قررتُ أمي إدخال أنواع جديدة من الغذاء - بالإضافة إلى حليبها - إلى وجباتي اليومية. فصارت تقدم لي خلأط ومسايق غريبة ذات ألوان ونكهات مختلفة، أقبلتُ على تذوقها مع أن أياً منها لم يرق إلى مستوى طعم حليبها ودفئه. وصار أبي يتبرع بإطعامي هذه الأكلات الإضافية أحياناً، ربما لكي يمنح أمي بعض الراحة، أو ربما، وهذا ما رجحتُ، لكي يستعيد حظوته عندي. كان يأتي إليّ ويحملني في حضنه، ويقرب من فمي ملعقة صغيرة باردة الحواف يكون قد ملاها بواحدة من الخلطات لكي أكلها. وكنتُ أستجيب أحياناً وأخرن أحياناً أخرى، حسب مزاجي ودرجة جوعي عندما يكون أبي هو المُطعم. ولكني كنتُ دوماً أقبل على أكل كل شيء تقدمه أمي، حتى تلك الخلطات الخضراء التي لم أكن أستسيغها، فقط لكي أبين لها أنني لا أرفض لها طلباً، وربما لكي أرفعها إلى أن تعاود العادة القديمة في الاهتمام بي وحدها من دون أبي.

طبعاً لم تنجح خطتي، واضطرتُّ إلى أن أقبل بوجود أكبر لأبي في حياتي. فقد تدرج من إطعامي إلى إعطائي حمامي اليومي. وصرتُ ألاحظ كيف يأتي دائماً مع نهاية النهار لكي يأخذني من أمي بعد أن تكون قد عرّثني من ثيابي وحفاظي إلى حوض الحمام المملوء بالماء الدافئ والمعطر، ويجلس أمامي يعطيني لعباً بلاستيكية لكي أتلهي بها عن الفك والتنظيف، اللذين يتابعهما من رأسي إلى كافة أطرافه.

وقررت أن أكون صبوراً معه، خاصةً وأنِّي أحبُّ الماء الدافئ واللعبَ البلاستيكية. ولكنِّي سرعان ما أحنُّ إلى وجود أمي في الحمام الصغير والمكتظِّ بأشياء، فأبدأ بالبكاء منذ اللحظة التي يرفعني فيها أبي من الحمام إلى أن تُنخل أمي وتستلمني يداها الحانيتان، لكي تبدأ بتنشيفي ونقلني إلى غرفتي وإلباسي ملابس النوم وتمشيط شعري، قبل أن نجلس معاً لكي تقرأ لي كتاباً أو أكثرَ على الضوء الخافت، وهو ما كان يعلن لي حقاً انتهاءً نهار اللعب وابتداءً ليل النوم. وصرتُ ألحظ بطرف عيني كيف يحاول أبي المسكينُ والمرتبكُ أن يكون مفيداً: فهو يحوِّس حولنا في غرفتي يعيد ترتيب الأشياء، ويناول أمي ما تحتاجه لإلباسي، ويأخذ المنشفة إلى الحمام. وبعد أن يقوم بكلِّ هذه الوظائف الصغيرة، يتطلع إلينا نحن الاثنين فيرانا وحدةً متألِّفةً واحدةً، فيهرز رأسه ويتمنى لي نومًا سعيداً ويخرج من غرفتي، لكي أبقى وحيداً مع أمي في لحظات صحوي الأخيرة.



لكنَّ الأمور تغيَّرت باتجاه التقارب بيني وبين أبي مع بدئي المشي؛ فقد أصبح هاجسُهُ الأكبر تمشيتي في البيت وفي الشارع وفي الحديقة، خاصةً وأنَّ الفصل كان ربيعاً وابتدأ الطقس يميل إلى التحسُّن. وعلى الرغم من أنَّني كنتُ أفضلُ أن أمشي مع أمي فقط، فإنَّ حُبِّي الشديد للمشي والتفرُّج على الحياة حولي دفعني لكي أقبل بأيِّ مرافق، حتى ولو كان أبي وحده! ثم إنَّ ذراعي أبي أقوى من ذراعي أمي وأقدرُ على حملي إلى البيت بعد أن أتعَبَ وأحرنَ عن المشي أو الركض وأمدَّ يديَّ الاثنتين إلى أعلى علامةً على رغبتني بأنَّ أُحمَلَ. وقد عنى هذا أنَّ بإمكانني المغامرة في الابتعاد عن البيت أكثر عندما أكون مع أبي، لتيفُّني من أنَّني سأحمل في العودة. وصارتُ هذه عادتنا اليومية قبل موعد العشاء والحمام: مشوار طويل مع أبي، في حين تبقى أمي في البيت تُعدُّ العشاء. وصرتُ لاحظ زهو أبي بي، والابتسامة الواسعة التي تطفو على وجهه كلما مررتُ بأحدِ على الطريق وعلَّق هذا المارُّ على شكلي أو أسلوبي في المشي أو نظرتي. بل وانتبهتُ إلى أنَّ أبي ينتفخ مباهاةً كلما مرت بنا امرأةٌ جميلةٌ وبأداته الحديث... عني طبعاً. وطفقتُ أبررُ لنفسي استغلالاً لذراعي أبي القويتين في حملي في طريق عودتنا بأنَّه يحصل على ما فيه الكفاية من الإطراء لكي يدفَع ثمنَ ذلك جهداً وحملًا. ولا أظنُّ أنَّ أبي كان ممانعاً لهذه المقايضة، بل أتضح لي أنَّه مرحَّبٌ بها كما بدا من عودته السريعة كلَّ يوم لكي يأخذني في مشوارنا، ومن طفوح الزهو على وجهه بعد عودتنا. وأظنُّ أنَّ أمي أيضاً كانت راضيةً بهذا الوضع الذي يتيح لها ساعةً من الراحة بعيداً عن الانشغال بي وبمتطلباتي. وقد زاد ذلك خاطرُ من قبولي بالوضع القائم، بل وتمتعي به، بعد أن تيقنتُ من أنَّ أمي، حبيبتي، راضيةٌ به أيضاً.



تمتنت المودة بيني وبين أبي مع حلول فصل الصيف عندما ابتدأت وتيرة مشاويرنا اليومية بالتغيُّر نحو الأفضل وطالت مدَّتها. ولما كنَّا نعيش في مدينة ساحلية فقد غيَّر أبي من طريقنا اليومي بأنَّ صار يأخذني بسيارته الرياضية المكشوفة إلى الشاطئ مع نهاية النهار وانكسار حدة الحرِّ، فأجلس مريبوطاً في مقدي العالي خلفه، والنسيمُ يداعب وجهي وخصلات شعري، والشمسُ الرقيقة تمسِّد وجهي، وكلُّ الدنيا تمرُّ من حولي وعلى الجهتين سريعةً وملوثةً بألوانٍ براقَةٍ وخاطفة. وكنْتُ أحبُّ هذا الشعور حباً جمًّا، وأعبَّر عن سعادتني بالتناوب على الصياح والبربرة والتصفيق، وأبي يجاريني ويصرخ أو يبربر معي، فأجيبه مقهقهةً، ناسياً قراري الماضي بالأضحك في وجهه، ونعاود الكرة مرات عديدة.

وعند وصولنا إلى الشاطئ كان أبي يخلع ملابسه لكي يبقى بالشورت، ويلبسني مايوهي الأخضر الطويل، ويركض على الشاطئ بين حد الموج والرمل، تاركين للماء مداعبة أقدامنا وترطيبها. وكنا نقف أحياناً لنرُقب قارباً على البعد ويخبرني أبي عنه أشياء لا أفهمها، ونقف أحياناً أكثر لنرُقب فتاةً جميلةً مستلقيةً على القرب، ولا يقول أبي شيئاً سوى بعض الهمهمة المعجبة، خاصةً عندما ترفع الفتاةً رأسها وتُنظر إليّ بإعجاب ضاحكةً (فأنا كنت طفلاً جميلاً حقاً)، ثم تنظر إلى أبي ببعض من إعجاب لكونه أنجب هذا الطفل الجميل، فيبادلها الابتسام زهواً ويستدير لنكمل سيرتنا بخطى متأنيةً ومبتهجة.

وكنا أحياناً ننهي مشوارنا عند بائع البوظة ويشترى أبي لنا قمعين نلتهمهما على الشاطئ ونوسخ وجهنا بلطخات حول الشفتين نغسلها بماء البحر المالح ونحن نضحك. وكانت أمي تأتي معنا في بعض الأحيان، فنسبح نحن الثلاثة عندما يكون هناك فضلة من شمس في نهاية اليوم نسمح لنا بالتنشف على الشاطئ قبل العودة إلى البيت. وكنا أحياناً نسير على الشاطئ لنتأمل قوارب بعيدة، أو لنلم أصدافاً ملونةً صغيرةً، أو لنأكل بوظتنا. وطبعاً لا نقف أمام الفتيات الجميلات، وإن كانت أمي لا تمنع من تعليقات أبي عند مرورنا بهن بل وتجيب عليها بتعليقات مضادة ومداعبة: فأمي امرأةً واثقةً من جمالها ومن تمكُّنها من قلب زوجها - وربما أضفتُ، ومن قلب ابنها أيضاً!

تلك كانت أحلى ذكريات سنتي الأولى.



لئن أرهقكم بالحديث عن تغيير علاقتي بالدي مع قدوم فصل الخريف وعودة البرد. ذلك أن هذه التطورات تدخل ضمن نطاق الذكريات الواعية، عندما صرت قادراً على التعبير عن مشاعري ورغباتي بالكلمات، وبعدها بالجمال القصيرة. ولكني سأنتهي قصتي بأن أخبركم عن بداية تحولي من التعبير بالأصوات والحركات إلى التعبير بالكلام في تلك المرحلة الوجيزة الانتقالية من عالم خيال الطفولة، كما يفهمه الكبار، إلى عالم الوعي بها. وقد جاءت هذه المرحلة فجأةً وبدون سابق إنذار، على الأقل بالنسبة إلى والدي اللذين كانا قد ابتدأنا بالتأمل من رفضي الكلام وإصراري على المناغاة وإصدار الأصوات العديمة المعنى (التي كانت تبدو لهما، على الأقل في بداية الأمر، طريفة).

فقد جلس والداي حولي يوماً على شاطئ البحر مع نهاية الصيف، وهما ياكلان عرانيس الذرة المشوية، ويحاولان إطعامي بعض حبات الذرة من دون جدوى؛ فأنا كنت قليل الأكل وصعبه في الآن نفسه. وكانا هما في قمة محاولتهما تعليمي الكلام... وبلغتني فوق ذلك؛ وكل منهما يشير إلى الذرة بيديه ويهوي: «مايز، مايز» تقول أمي، و«درة، درة» يقول أبي. وكنت أزم شفتي رافضاً الحديث والاكل في الوقت ذاته، ثم أهمهم ببعض من كلماتي غير المفهومة وأتطلع إلى كل جهة حولي وأحرك يدي. ينس والداي من إطعامي أو تعليمي أية كلمة ذلك المساء، وانصرفا عنّي يتأملان الشمس التي كانت قد جَحَتْ إلى المغرب أرجوانيةً قانيةً تُنشر ظلّاتها فوق الأفق كله. في هذه اللحظة بالذات ضغطت على ذراع أمي التي كانت تحيط بخاصرتي وإن كانت لاهيةً عنّي. ولما التفتت أمي إليّ بوجهها الحبيب والبشوش دائماً، أخذت بالإشارة نحو أبي الجالس على بعد سنتمترات قليلة منّي، فالتفت إليّ هو أيضاً أثناء ذلك. عندها طفقت أكرّر بكثير من الشعور بالرضا، وربما بشيء من الود الجديد النابع منّي:

«بابا، بابا»، «بابا، بابا».

كامبردج، ماساتشوستس